المجموعات الأدبية على الفيسبوك والمسئولية التاريخية

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

يمكنني القول بأن مجموعات الفيسبوك الأدبية هي التطور التواصلي الأحدث للمنتديات الأدبية التي بدأت في الظهور مع بداية الألفية الأولى من القرن الحادي والعشرين وربما بعد هذه البداية بسنوات قليلة. والمجموعات والمنتديات هي الشكل الالكتروني الأكثر تفاعلا لما في الواقع الأدبي من صالونات أدبية وجماعات أدبية ونوادي أدب وجلسات خاصة ولقاءات على المقاهي وما إلى ذلك من كيانات على أرض الواقع تهدف إلى الالتقاء حول هدف واحد أو عدة أهداف، ومنها تبادل الخبرات وإبداء الآراء والسعي نحو تطوير المهارات الكتابية الفردية والجماعية على حد السواء.

أذكر أن الفضل الأساسي في تطوير مهاراتي الإبداعية ومهارات العديد من أصدقائي – بعد الله سبحانه وتعالى – كان نادي الأدب بجامعة سوهاج في النصف الأول من تسعينات القرن العشرين. فلقد كنتُ عضوا في هذا النادي مع الكثيرين من أصدقائي المبدعين مثل نجاح عبد النور وإيهاب عباس وسراج وصفي وأحمد عبد الحكم وأنور حافظ. وكنا نلتقي أسبوعيا ونتناقش في بعض ما

كتبناه طوال الأسبوع وكل منا يبدي رأيه في كيفية إخراج النص بأفضل صورة إبداعية ممكنة. ونظرا لأن لقاء واحدا في الأسبوع كان لا يكفي، كنا نستكمل نقاشاتنا على أحد المقاهي يوميا بين المحاضرات أو في المساء لدرجة أن صاحب المقهى أعاد تغيير اسم المقهى آنذاك وجعلها "مقهى الأدباء". ولا يعني هذا التواصل اليومي أننا كنا نشكل مدرسة واحدة وإنما كان يهدف إلى تطوير أسلوب كل كاتب منا من داخل إبداعه وفقا لخصوصيته الإبداعية.

وعندما بدأت المنتديات الأدبية في الظهور مثل منتديات المرايا ومنتديات شظايا، احتلت هذه المنتديات مكان النقاشات واللقاءات التي كانت على أرض الواقع نظرا لأن الحياة المتسارعة واضطرار الكثيرين للسفر لم يجعل اللقاء على أرض الواقع ممكنا. ولكن معظم المنتيات كانت تغيب عنها المناقشة الجادة، وأظن أنها في الأساس تقوم على تبادل قراءة النصوص وإبداء الإعجاب أو ملاحظات سريعة دون التعمق في النقاش.

وظهرت المجموعات الفيسبوكية كبديل في الغالب لافتقاد التواصل على أرض الواقع ولتعويض غياب النقاشات عن المنتديات الأدبية. كما أن مجموعات الفيسبوك صارت أكثر تخصصا، فبدلا من صفة "الأدبية" التي كانت تقترن بمعظم المنتديات، صارت هناك مجموعات للقصة الومضة ومجموعات

للقصة القصيرة جدا ومجموعات لقصيدة الهايكو وما إلى ذلك من أنواع أدبية.

تتمثل الميزة الافتراضية الأساسية لمجموعات الفيسبوك في أنها تتجاوز حدود الجغرافيا واللهجات وتجعل الكتاب من مختلف الدول العربية يتواصلون باللغة العربية الفصحى. والميزة الثانية ميزة نوعية تتعلق بالتركيز على نوع أدبي – رئيسي أو فرعي – واحد بما يمكنه أن يمكّن الأعضاء من تنمية مهاراتهم في هذا النوع أو ذاك ويقرؤون فيه نصوصا لا حصر لها بإمكانها أن تجعلهم ينمُّون مهاراتهم الأسلوبية من خلال المحاكاة والتمثُّل والاستيعاب والتحليل ثم الإبداع. كما أن هناك ميزة افتراضية ثالثة تتمثل في النقاشات التي تدور حول النصوص والمقالات النقدية المنشورة في المجموعة.

ولكن كل هذه الميزات افتراضية قد تتحقق على أرض المجموعة أولا تتحقق. وتجربتي الشخصية أثبتت أنها لا تحقق في معظم المجموعات. فلقد بدأت المشاركة الفعالة في مجموعات الفيسبوك منذ أواخر 2013 أو بداية 2014 من خلال نشر النصوص والمشاركة في المسابقات وكتابة التعليقات على النصوص المنشورة والرد على التعليقات على نصوصي. ولكن الحماس الذي بدأت به مشاركاتي بدأ يقل تدريجيا نتيجة لصدمة

ثقافية لم أكن أتخيل وجودها بين أعضاء قرروا الالتقاء في مجموعات بعيدا عن الموسسات الثقافية الرسمية. ويمكنني أن أرصد أسباب هذه الصدمة في عدة نقاط:

1- كل عيوب مجتمعاتنا وثقافتنا العربية انتقلت إلى الفيسبوك بشكل متضخّم؛

2- المجموعات في معظمها مجموعات شكلية لم يتم تأسيسها بهدف المساهمة الفعالة في تطوير النوع الأدبي المخصصة له المجموعة، وإنما بهدف إظهار فلان أو علان على أنه مؤسس مجموعة كذا وأنه رائد في مجاله وأنه أستاذ كبير وما إلى ذلك من "أمراض نفسية"؛

3- المسابقات التي تقام في المجموعات معظمها مسابقات شكلية يغيب عنها الوعي النوعي بخصوصية النوع الأدبي المخصصة له المسابقة، وتهدف المسابقات في الغالب إلى زيادة مشاركة الكتاب في عضوية المجموعات لا أكثر، وفي المجموعات المخصصة للقصة الومضة أو الومضة القصصية على وجه الخصوص، لا يكون في الغالب لدى أصحاب المجموعة أو نقاد المسابقة وعي بخصوصية الومضة، وإنما يتم تقييمها بناء على الاختزال والبلاغة والتلاعب بالألفاظ والمفارقة والدهشة والتضاد وما إلى ذلك من سمات اعتباطية تفرضها بعض المجموعات،

خاصة وأننا نجد كلامهم يسري على ما يقوله بعض النقاد عن القصة القصيرة جدا فيما ينقلونه عن النقد الأدبي باللغات الأوربية دون مراعاة لما يتم كتابته بالفعل وتحليله واشتقاق سماته من داخله؛

4- وهذا يقودنا إلى سبب رابع وهو الخلط الفوضوي بين الكثير من أنواع الكتابة – الأدبية وغير الأدبية – وإصدار أحكام نقدية غير واعية وغير مسئولة؛

5- نظرة الكثيرين من الكتاب ومؤسسي المجموعات إلى الأدب نظرة أخلاقية قديمة ترى في الأدب وعظا وإرشادا وحكمة، وفي الأنواع السردية لا يكون السرد هو الأساس وإنما يتم استعماله كوسيلة لتوصيل الموعظة أو الحكمة الأخلاقية؛

6- التعليقات في معظمها تعليقات مجامِلَة لا تتناول النص الأدبي وإنما تكتفي بالتعبير عن الإعجاب مهما كانت جودة النص أو رداءته، الأمر الذي يعطي الكاتب انطباعا إيجابيا عن كتاباته، وبذلك تترسخ لديه ثقافة الرداءة، فالمهم التعبير عن الفكرة الأخلاقية بعيدا عن أي قالب أدبي وبعيدا عن التمييز بين فنون القول الأدبية وغير الأدبية؛

7- طغيان الشللية على مجموعات الفيسبوك، فيغلب على هذه المجموعة أو تلك الثناء على نصوص كتاب بأعينهم ممن ينتمون

في الغالب إلى شلة إدارة المجموعة وإهمال نصوص جيدة لكتاب آخرين؛

8- محاولة التربُّح من وراء الأعضاء من خلال تجميع مبالغ مالية منهم في مقابل تجميع نصوصهم في كتاب ونشره ورقيا لنجد أن مؤسس المجموعة قام بتجميع عشرات أضعاف التكلفة الفعلية للكتاب مستغلا حاجة بعض الكتّاب النفسية إلى نشر نص أو مجموعة نصوص ورقيا لهم لأنهم يعتبرون أن النشر الورقي صك اعتراف بموهبة الكاتب، وهذا مناف للحقيقة.

وبالرغم من الإحباط الذي يمكن أن تولده كل هذه الأسباب وأسباب أخرى، وما قد يتولد عنها من انسحاب الكاتب الحريص على تطوير نفسه من فضاء المجموعات الأدبية، وبخاصة مجموعات الومضة، على الفيسبوك، انضممتُ لمجموعة سنا الومضة القصصية منذ بدايتها نظرا لما لمسته في الأستاذين عصام الشريف وعباس طمبل من رغبة حقيقية في إنشاء مجموعة تستطيع أن تقوم بدور إيجابي في ظل الفوضى المتفشية في المجموعات الخاصة بالومضة القصصية أو القصة الومضة، خاصة وأنني أكتب الومضة منذ بداياتي في تسعينات القرن العشرين واشتملت مجموعاتي فتافيت الصورة (2001) ونقوش على صفحة النهر (2009) ورائحة مأتم (2010) على العديد من الومضات التي كنت

أنشرها تحت مسمَّى نوعي مشترك وهو قصص أو قصص قصيرة، في حين أن المجموعة الواحدة من هذه المجموعات قد تشتمل على قصص ومضة وقصص قصيرة جدا وقصص قصيرة، فلم يكن الوعي النوعي قد برز لديّ آنذاك. وهنا لا ننكر أن مجموعات الفيسبوك ساهمت بدور إيجابي في ترسيخ الوعي النوعي الذي يميز الومضة القصصية عن القصة القصيرة جدا عن القصة القصيرة، حتى لو كان هذا الترسيخ مازال اسميا ويحتاج إلى جهود العديد من النقاد الواعين كي يرسموا خريطة الأنواع الأدبية على الساحة العربية الآن بدقة ولو جزئية.

ولكل هذه الأسباب، قامت إدارة سنا الومضة القصصية – التي تتمثل في عباس طمبل من السودان وعصام الشريف وجمال الجزيري من مصر بداية من يناير 2014 وانضم لها منذ بداية نوفمبر 2014 بسام جميدة من سوريا وحسونة العزابي من ليبيا – بالسعي نحو الاهتمام بالكيف على حساب الكم وتقديم خدمة نقدية متكاملة مستمدة من المشاكل التي تواجهها فعليا مع النصوص المرسلة والقضايا التي تطرحها وبالاستعانة بنقاد متميزين مثل الدكتور بهاء الدين محمد مزيد من جامعة سوهاج بمصر. وبدأت هذه الجهود بالتريث في قبول النصوص للنشر والتعامل بصبر مع التصورات المسبقة المغلوطة لدى بعض الأعضاء عن الومضة

التي استمدوها من مجموعات أخرى، ثم بعقد ورشة نقدية لمدة ثلاثة أشهر تقريبا في فبراير ومارس وأبريل 2014 كان يتم فيها تناول 10 نصوص أسبوعيا تناولا تفصيليا يسعى لإبراز الجماليات وإبراز السلبيات ومعالجتها أيضا. كما واكب ذلك إصدار مجلة الكترونية شهرية تهتم في الأساس بنشر المقالات والدراسات النقدية التطبيقية والتنظيرية على حد السواء. وبداية من مايو 2014 تم إنشاء سلسلة كتاب الكتروني لنشر الومضات المنشورة شهريا على المجموعة، ثم غربلة الومضات المنشورة بحيث يتم نشر الومضات الجيدة فقط والومضات التي قام أصحابها بتعديلها وفقا للنقاشات التي دارت حولها.

ويتمثل الشعار الأساسي لمجموعة سنا الومضة القصصية في "نلتقي لنرتقي"، وبناء على هذا الشعار تبتعد المجموعة عن أية مجاملات مهما كانت أصحاب النصوص، وتركز النقاش حول النصوص وليس حول أصحابها، ويتم نشر مقالات نقدية على الدوام على المجموعة سواء أكانت هذه المقالات تتناول ومضة أو أكثر لكاتب ما أو تتناول جانب تنظيري للومضة ككل أو تتناول بعض المفاهيم الأساسية الخاصة بكتابة الومضة بناء على ما تكشف عنه النقاشات ومستوى النصوص المرسلة للنشر. والحمد لله، لم تضع مجهودات سنا الومضة القصصية، إدارة وأعضاء، هباء، فهناك

العديد من الكتّاب الذين تجاوبوا مع المجموعة ورؤيتها للومضة بأنها فن سردي في الأساس يتفرّع عن القصة القصيرة جدا ويمثل خطوة تالية لها على طريق التكثيف، وطوّروا ومازالوا يطورون أسلوبهم ورؤيتهم.

خلاصة القول، أرى أن الفيسبوك ليس منفصلا عن الواقع إيجابا وسلبا، وأن هناك حراكا أدبيا كبيرا على الفيسبوك الآن مهما كانت سلبياته، لأن الفوضى البادية الآن لابد أن تتمخض عن غربلة وإضافة في قابل الأيام، بشرط إحساس إدارة المجموعات وأعضائها بالمسئولية تجاه مستقبل الأدب العربي، فالومضة والقصة القصيرة جدا على سبيل المثال سيلعبان دورا كبيرا ومهيمنا في السرد العربي شئنا أم أبينها، لأنهما مرتبطان بطبيعة العصر وسرعته وجانبه التكنولوجي والتواصلي. ولذلك لابد أن يتجسد هذا الإحساس بالمسئولية وأن تسعى كل مجموعة لإضافة إسهامها الخاص في هذا المجال. كما أدعو أعضاء المجموعات ومدراءها إلى الصدق مع النفس وما قد يتولد عنه من تقبُّل النقد وإدارك أن أي نقد أصيل لا يهدف إلا إلى إفادة المبدع بوجه خاص والمساهمة في الإضافة للأدب العربي بوجه عام. كما أدعو النقاد الذين يبتعد معظمهم عن المجموعات الأدبية ويعتبرون صفحاتهم الخاصة على الفيسبوك مجرد فضاء لنشر أخبارهم وتعارفهم بالآخرين – أدعوهم

للإسهام في تقييم الأنواع الأدبية الوليدة – والوليدة هنا قد تدل على أن عمرها سنوات طويلة – ومحاولة التنظير لها من داخلها وليس من خلال فرض مقولات نقدية عليها لا تتسق مع طبيعتها ومستمدة في الغالب من ثقافات أخرى أو أنواع أدبية أخرى.